

## محاضرة الدراسات العليا / دكتوراه لغة

### البناء الثقافي/ المفهوم والمقاربة اللغوية

الثقافة مفهوم ذات تعددية واسعة ومتنوعة، لذا لا يمكن حصر هذا المفهوم تحت مهيمن فاعل واحد ؛ لأنه لا يمكن تنشيطه وتقييده بدلالة معينة ؛ لارتباطه بأنساق ثقافية متعددة (فرعية ، ورئيسة)، تبدأ من دلالة الماضي التي تنصهر لتشكّل دلالة الحاضر والمستقبل، وذلك بامتلاك قوة المعرفة داخل المجتمعات.

والثقافة من منظور لغوي مشتقة من الجذر اللغوي ثقف، وقد ورد لهذا الفعل في المعجمات معنيان هما :-

**الأول : مادي ( حسي )** : بمعنى اقامة درء الشيء، ومنه ثقف الشيء ثقفا اذا لزم، وأصل التثقيف : التقويم، ومنه ثقفت القناة أي أقمت عوجها، ومن ذلك الثقاف وهي حديدة أو خشبة تكون ملازمة مع صاحب القوس أو الرمح بطول ذراع، يقوم بها المعوج.

**الثاني : معنوي ( تجريدي )** : ومنه قولهم ظفرت الكلام إذا ظفرت به و أدركته، ورجل ثقف بمعنى ظافر ؛ لأنه يصيب علم ما يسمعه على استواء، وثقفت الأمر ، أدركته وظفرت به، وثقفت العلم أو الصناعة إذا أسرعت في أخذها ،وثقفت الحديث، فهمته بسرعة، فالتثقيف هو سرعة التعلم والفهم .

أما المثقف فهو الحذق في ادراك الشيء أو فعله، يقال : رجل ثقف لقن وثقف من رام أو راو أو شاعر، والثقف الحاذق الفطن، والمثقف ثقافة وثقفا صار حاذقا خفيفا، فالمثقف هو الشخص الذي صقلت قدراته الذهنية والعقلية من المعرفة والأفكار والتصورات القائمة على التحضر والتفنن في الحياة .

الملاحظ أنّ المعنيين متقاربين ؛ لأنه إذا ثقف الشيء وأقيم عوجه فقد تمكن منه وظفر به، والحال سواء في تثقيف الكلام أو الحديث، فهذا يعني ادراك المعنى بهما والتمكن منه، فالمعنى الجامع بينهما هو التمكن الذي يتحصل فيه اتقان الشيء بشكل واع.

أما البناء الثقافي فهو يصاغ من سلوكيات الأفراد والأفكار التي تتوالد من الموروثات البيئية-الاجتماعية، والمرجعيات الفكرية- الثقافية، التي تتحرك في بدايتها بحراك رجعي تحت طائلة التاريخ والماضي المؤثر لبناء حالة ثقافية معينة، حتى ليتحول هذا البناء الثقافي- أحيانا- إلى سرد تأريخي وثائقي- اجتماعي، عندما يتم تنميته وحصره بالايديولوجيات التاريخية والاجتماعية ، لذلك يشغل البناء

الثقافي أحياناً دلالية واسعة، لأنه قادر على طرح حمولات ثقافية متعددة منها: اللغة والدين والاجتماع، والنقد وغير ذلك، وهذا يدل على قدرته على الانزياح إلى أكثر من حقل بسبب ثرائه وشموليته وتعدد دلالاته، لتعلقه بإحالات كثيرة ؛ لأنه يتنوع ويتعدد تبعاً لدوره ووظيفته التي يؤديها في حقله، لهذا لا يمكن دراسة أي بناء ثقافي دراسة نظرية تجريدية.

هناك مَنْ حصر مفهوم الثقافة بالجينات الوراثية النابعة من اللاوعي الجمعي ليشكل نسقاً ثقافياً تظهر آثاره في السلوكيات والأفكار. وهناك مَنْ سبر الثقافة تحت تباين منظوري التخلف والتطور، بوصف الثقافة من العوامل المؤثرة والفعالة في بناء المجتمعات وإخراجها من دائرة التخلف والانحطاط إلى التطور الفكري والبناء الاجتماعي.

وقد عرّف شتراوس وبرادلي الثقافة بأنها كل ما يتعارف عليه الفرد والمجتمع من معتقد وتفكير موروث، يعمل على تنظيم أفكارهم وسلوكهم وأنظمتهم وعلاقاتهم المجتمعية، وبذلك توصف- الثقافة- بأنها نظام للتمرس في الذاكرة الجمعية. ورأى امبرتو ايكو أنّ الثقافة هي كل ما يحمله الإنسان في داخله من أفكار وصفات وأيديولوجيات بدءاً من اللغة والتراث والتاريخ، وانتهاءً بالأفكار الأيديولوجية ، لتعد الثقافة هنا ضمن هذا المسار بمثابة هوية تعريفية للمجتمعات.

### هل الثقافة نسق؟!

تولد الثقافة –أية ثقافة- بشكل عفوي غير واعي في أكثر الأحيان ، ثم تتحول تدريجياً الى نسق منتظم مهيم في المجتمع ، ويكون الفرد في هذا المجتمع قادراً على إحداث أنساق ثقافية متعددة قابلة للتعامل معها مجتمعياً ، عندما يتحول هذا الفرد إلى ذات ثقافية بامتلاكه خبرات قابلة على التفاعل داخل المجتمع ؛ لأنّ الفرد- كما يراه جولدمان، لا يطغى عليه تفكير ما أو سلوك ما إلّا على وفق علاقته مع غيره من الأفراد الآخرين وإن كان بينهم مختلف ثقافي، لذلك تُبنى الثقافة على الذات الجماعية التي تتحرك جدلياً بشكل متفاعل مع الآخرين ؛ لأنّ أيّ نشاط ثقافي لا يتم إلّا على وفق قاعدة الجمع حيث تظهر العادات والتقاليد والأعراف حتى تشكل الثقافة هوية يُعرف بها الأفراد والمجتمعات بوصفهم أنظمة اجتماعية وفكرية وسياسية.

### هل الثقافة حكرًا على المجتمعات المتطورة فكرياً وأيديولوجياً؟!

يوصف البناء الثقافي بأنه نسق يتواجد في أغلب الأنظمة الفكرية والثقافية للمجتمعات كافة ، وإن كان ذلك بنسب متفاوتة من مجتمع لآخر؛ لأنها مرهونة

بالظروف الحضارية والثقافية والفكرية والفردية التي تقل في المجتمعات الباردة (البداية) ؛ لأنها مجتمعات ساكنة عن التغير والتطور، ولكن هذا لا ينافي كونها تمتلك نسقاً ثقافياً خاصاً بها وإن تنافى بدوره مع التطور والوعي المعرفي ، لذلك تحدد الانثروبولوجيا مفهوم البدائي بعيداً عن البعيد المنعزل عن الحضارة أو المتوحش بسلوكياته من مأكّل وملبس ومشرب ، كما لا يعني القديم أو الموحل في القدم بل يعني الثقافة البسيطة غير المعقدة بل أنّ الثقافة المتحضرة والمتقدمة والمتمدنة هي الثقافة المعقدة في سلوكياتها وأفكارها وأنظمتها.

### مميزات البناء الثقافي

- 1-قابليته على التشجير والهيمنة، بمعنى أنّ هناك ثقافة أم أو ثقافة رئيسة تهيمن على الأفراد والمجتمع، ولكنها في الوقت ذاته تتفرع إلى ثقافات هامشية أخرى ، تنتمي إليها ولكن لا تتعارض معها.
- 2-الإتكاء على مرجعية ثقافية ، ينحدر من الماضي البعيد أو القريب ليتصل بالحاضر ويستمر إلى المستقبل، لإحداث متغيرات تنتج بُنى ثقافية جديدة .
- 3-الرصد الثقافي لأي بناء ثقافي يجب أن يستند إلى رؤية استباقية التي تعمل على التنبؤ بالسلوك الثقافي لأي شريحة مجتمعية عندما تتداخل الثقافات في وسط مدعم بثقافات متعددة وأحياناً متغيرة. لذلك يمكن التعرف على البناءات الثقافية في ضوء خيارات كثيرة أهمها :—

- المهيمن الثقافي: الذي يتمخض من سلوكيات جمعية ، اتسمت بالوعي المعرفي متداخل ضمن وعي جماعي يجمع بين أفراد وطبقات مجتمعية كثيرة، بمعنى أنّ تتسم هذه الثقافة بطابع جمعي متسيد حيث تهيمن سلوكيات معينة وأفكار منتظمة ذات طرائق متشابهة ومتقاربة في مسلك جمعي يعبر فيه عن علاقات منظمة و مترابطة بين الأغلبية المجتمعية.

- المضمر الثقافي أو المهمش الثقافي: حين يكون البناء الثقافي سكونياً وجمودياً غير قابل إلى الانشطار والتفرع لافتقاره إلى الحراك الاجتماعي الجمعي والمتغير الفكري ، ويكمن ذلك في المجتمعات البدائية المنغلقة على نفسها المهمشة، فيكون المخاض الثقافي منها متسماً بالسكون والثبات، تتحكم به الحاجات الاجتماعية اليومية والسايكولوجية البدائية والبيئية المغلقة ، دون أن يكون هناك انفتاح على ثقافات أخرى؛ لأنّ البناء الثقافي يركز عندهم على الذاكرة الجمعية التي تستند بدورها إلى المتوارثات من الأجداد إلى الأبناء فقط، فيكون النسق الثقافي هنا ثابتاً غير خاضع للمتغيرات ؛ لأنه قائم على الفطرة والموروث والسلوكيات المرتبطة

بالفطرة ، والعفوية غير الواعية التي ترتبط بالعادات والتقاليد التي نمت بالتبعية دون أن تقوم على الأفكار الواعية الناضجة ، وقد وصف جويل كاندو هذه المجتمعات بالمجتمعات السكونية النائمة لأنها لا تقوم بإعادة انتاج الثقافة بل فقط تكرار ما هو متوارث من عادات وتقاليد والمحافظة عليها.